



# إمبراطوريات وأوبئة: منظور بعيد المدى

سيف دعنا\*

«مصير روما قد يساعد على تذكيرنا بأن الطبيعة ماهرة ومتقلبة، وبأنه يمكن لقوة التطور العميقة أن تغيّر العالم في لحظة واحدة». جيمس بيليش: «تجديد الأرض: ثورة الاستيطان وصعود العالم الإنجليزي»

## مقدمة

كيف يجب أن نفكر في الأوبئة ودورها في التاريخ؟ كيف يجب أن نفكر في دور جائحة كورونا الراهنة المحتملة وتبعاتها على العالم ومنطقتنا؟ هذه الأسئلة تفترض تشكيكاً في الأنماط التفسيرية السائدة والأدوات المعرفية التقليدية التي تستخدم لقراءة الجائحة، كما تشكك في صوابية التعامل معها على حساب أنها أزمة صحيّة أساساً، بقدر ما هي أزمة اجتماعية اقتصادية. فمثل كل الأحداث التاريخية ذات التبعات الكبيرة، تُشكّل جائحة كورونا امتحاناً للنظريات السائدة في حقول اجتماعية وإنسانية معرفية متعدّدة من جهة، ويبدو أنها ستعزّز من شرعية

\* عميد كليّة العلوم الاجتماعية، وأستاذ علم الاجتماع والدراسات الدوليّة في جامعة ويسكونسن في الولايات المتحدة.

فرضيات وأنماط تفسيرية جديدة نسبيًا لا تزال مهمشة أكسبتها الجائحة والحاجة إلى التفسير والاستشراف زخمًا إضافيًا.

هذه الورقة تعمل على المزاجية بين نمطين تفسيريين لمحاولة فهم الجائحة واستشراف تبعاتها على مكانة الإمبراطورية الأميركية والنظام العالمي الذي تهيمن عليه منذ مطلع القرن الماضي، كما استشراف أي دور محتمل للجائحة في أفول دورها ومكانتها. فكل من «علم اجتماع البيئة»، الذي يضيء على دور المتغيرات غير الاجتماعية في التاريخ الاجتماعي، والاقتصاد السياسي، الذي يضيء على جدلية التطفل الاجتماعي والبيولوجي، يمكن أن يُشكلا أساسًا لمنظور بعيد المدى.

إن أهمية محاولة قراءة جائحة كورونا، وفهمها من منظور بعيد المدى لا تنبع فقط من طبيعة مفاعيل الوباء على المجتمعات وحدوثها في سياق الزمن الاجتماعي الطويل، الذي تحدث فيه التحولات بوتائر أعمق كثيرًا، وفي أزمات أشد بطئًا؛ بحيث تحدث وتبقى عادة خارج حدود وعي الأفراد والجماعات (وحتى المؤرخين والخبراء أحيانًا) وزمنهم السريع؛ بل، لأنه يمكن لها أن تشكل أداة إضافية وأساسية لإدراك أفول الإمبراطورية الأميركية وتفسيرها، التي ربما تكون أحد أهم الأحداث التاريخية الجارية في زمننا. فتبعات الجائحة المتعددة، وتفاعلها مع متغيرات عديدة أخرى (اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، وأيديولوجية، ومعرفية، إلخ...) يمكن أن تؤسس لسردية أكثر نضجًا للأفول.

## منظور بعيد المدى

في العام 1922م، أصدر المؤرخ الفرنسي لوسيان فيفر كتابه «مدخل جغرافي للتاريخ»<sup>1</sup>، فكان أحد أسباب إلهام الدراسة الأولى والمهمة للمؤرخ الفرنسي، وصديق فيفر لاحقًا، فرنان بروديل «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني»<sup>2</sup>. وإذا كان عنوان كتاب فيفر «مدخل جغرافي للتاريخ» يدل على محتواه إلى حد كبير، فإن عنوان كتاب بروديل ليس لافتًا فقط أيضًا، ويدل كثيرًا على

1- Lucien Febvre. 2009. «A Geographical Introduction to History». NY: Routledge.

2- Fernand Braudel. 1995. «The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II». Berkley: University of California Press.

محتواه؛ بل له قصة مفيدة، لفهم الإطار النظري لتلك المحاولة، رواها المؤرخ البريطاني أوسوين موراي في مقدمته للطبعة الإنكليزية لمؤلف بروديل. الفكرة الأولى عند بروديل، يقول موراي، والتي طلب فيها رأي صديقه فيفر، كانت التأريخ لـ «فيليب الثاني وسياسة المتوسط». كان الرّد الذي تلقاه حاسماً ليس فقط في تغيير العنوان؛ بل وأيضاً في تحديد المدخل والمنهج وحتى النتائج: «فيليب الثاني والمتوسط، موضوع جيد. لكن، لماذا لا يكون العنوان «المتوسط وفيليب الثاني»؟! هذا موضوع أكبر. فما بين الاثنين فيليب والبحر المتوسط، ليس الدور متساوياً<sup>1</sup>. ويبدو أن فيفر أعاد تأكيد فكرته مراراً بالقول «ليس فيليب الثاني هو المهم؛ بل المتوسط»، كما ينقل مترجم الطبعة العربية في مقدمته.

هكذا انتهى المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل بحفر مفهومه «المدى الطويل»، أو «المنظور الطويل المدى»، كما يتم ترجمة المصطلح الفرنسي إلى الإنكليزية، والتي تقدم تفسيراً وشرحاً لسيرورة التاريخ ومنعطفاته ومكانيته، عبر استكشاف دور أشكال متعددة وتأثيراتها وتداخلها من الحدود والمتغيرات والبنى غير الاجتماعية (مثل العوامل الجيومورفولوجية، والجيوفيزيائية، والإيكولوجية، إلخ،...) في قراءة التاريخ الإنساني وكتابته. لكن ما قدمه بروديل لم يكن سوى مساهمة للنمط التفسيري الجديد.

جاءت الإسهامات الأهم مع تطوّر «علم اجتماع البيئة» في العقود الأخيرة. يمكن إجمال الفرضية ببساطة كالآتي: أولاً؛ إنّ التحولات المعرفية تفلق باستمرار وتغير بالضرورة كتابة التاريخ وقراءته، وهذا يفسّر، إلى حدّ ما، إعادة كتابة التاريخ بشكل مستمر، لكن هذه المرة على أسس بيئية، أو عبر إدخال عوامل غير اجتماعية في صناعة التاريخ الاجتماعي. ثانياً؛ إنّ من أهم الاتجاهات الراهنة، التي أدت إلى إعادة كتابة التاريخ العالمي، وحتى التاريخ الوطني لبعض الشعوب، هو تطوّر أطر نظرية تفترض كمبدأ أساسي جدلية التاريخ البيئي والتاريخ العالمي وتراپطهما، أو التاريخ البيئي والتاريخ الاجتماعي. ثالثاً؛ هذا التحول يستند أساساً إلى الإقرار بأن التنمية البشرية والتغير الاجتماعي والتاريخي لها حدود (وحتى قيود) حقيقية،

1- Fernand Braudel. 2001. «Memory and the Mediterranean». NY: Alfred A. Knopf.

وأن تلك الحدود إلى حدٍ كبير هي إيكولوجية، كما يشير ادmond بيرك وكينيث بوميرانتز في «البيئة وتاريخ العالم»<sup>1</sup>.

إن أهمية هذا التحول المعرفي الراهن يمكن له أن يؤثر بشكل حاسم في فهمنا لطبيعة وباء كوفيد 19 وتبعاته أكثر من أي إطار نظري آخر. فوباء كوفيد 19، كما يتضح حتى الآن هو مشكلة اجتماعية اقتصادية أكثر بكثير من أن تكون مجرد أزمة صحية. ومن ثم، فيما يمكن الركون لاختصاصيي الأوبئة والصحة العامة لدراسة الفيروس والعمل على العلاج وإنتاج المصل، فإن ذلك الفهم لا يمكنه أن يشمل إدراك طبيعة الأزمة الاجتماعية الاقتصادية المترتبة على انتشار الوباء، ولا حتى استشراف مساراتها المستقبلية المحتملة.

### كيف سقطت روما؟

في مطلع العام 400 ميلادي، ألقى الشاعر الروماني الشهير «كلوديان» الكلمة الترحيبية في احتفال مهيب أقيم في مُدرج المنتدى الروماني تكريمًا للجنرال الروماني الشهير فلافيوس ستيليكو، في أثناء زيارته للمدينة. كانت عظمة روما، وعظمة الإمبراطورية يومها، محور كلمة الشاعر، الذي يوصف بعبارته نُقِشت في أسفل تمثال أقيم تكريمًا له من الإمبراطور ومجلس الشيوخ في منتدى تارجان (أو تاريان) بأنه الشاعر الذي يجمع «عقل فيرجيل وإلهام هوميروس». فروما التي نشأت، كما قال، «من بدايات متواضعة، امتدت لاحقًا إلى قطبي الأرض، وانتشرت قوتها من ذلك المكان الصغير إلى أن أصبحت تتزامن مع امتداد ضوء الشمس». أما الإمبراطورية، أضاف الشاعر، فكانت «والدة الأسلحة والقوانين». فلقد «خاضت ألف معركة، وامتد نفوذها ليصل إلى كل بقاع الأرض»<sup>2</sup>. كان كلوديان مُحققًا، طبعًا، بخصوص خوض روما للحروب دون توقّف. فأبواب معبد «جانوس»، التي كانت تبقى مفتوحة في مرحلة الحروب، لم تُغلق على مدار أكثر من سبعة قرون سوى مرّتين.

1- Edmund Burke and Kenneth Pomerantz. 2009. «The Environment and World History». Berkley: University of California Press.

2- Kyle Harper. 2017. «The Fate of Rome: Climate, Disease, and the End of the Roman Empire.» Princeton: Princeton University Press. P. 2.

وفي نهاية الحفل الذي تخلّله موكب إمبراطوري مهيب، تكريماً للجنرال الذي «أعاد التوازن للأرض»، كما وصف كلوديان انتصاراته في أعقاب تفهقر مؤقت شهدته الإمبراطورية؛ بسبب هزيمة عسكرية في العام 378، كانت الخاتمة عبارة عن استعراض إمبراطوري للقوة، تخلّله «عرض مجموعة غريبة (عن روما) من الحيوانات بهدف تأكيد مصداقية ادعاءات الإمبراطورية بالعظمة. فلقد تم جلب الخنازير البرية والدببة من أوروبا، والثمور والأسود من أفريقيا، وأنياب الأفيال من الهند». وإمعاناً في إظهار مدى سطوة الإمبراطورية تم ذبح «سادة الأدغال» وأعاجيب الجنوب من الحيوانات المفترسة في ممارسة لرياضة إمبراطورية خاصة. «فكان سفك دم أكثر وحوش الطبيعة ضراوة أمام الجمهور في ساحة المنتدى، تعبيراً صارخاً عن مدى هيمنة روما على الأرض، وعلى كل مخلوقات الأرض»<sup>1</sup>. لكن، بعد ذلك الحدث الأسطوري المدهش، وبعد استعراض القوة الإمبراطورية الفريدة، بأقل من ثماني سنوات، كان أاريك، ملك القوط الغربيين، يقف مع جنوده على أبواب روما، وبعدها بعامين فقط (410/8/24م)، سقطت «المدينة الخالدة»، كما كان يظن أهلها، بيد من كانوا قبلها بسنوات قليلة مجرد لاجئين ضعفاء لم يجرؤوا حتى على قطع الدانوب هرباً من أعدائهم دون إذن من حكام روما المتجبرين. ومن بيت لحم، كتب القديس جيروم في إحدى رسائله، متحسراً: «تم الاستيلاء على المدينة التي استولت على العالم كله»<sup>2</sup>. كان سقوط الإمبراطورية التي كان شعارها اللاتيني (Imperium Sin Fine)، أو «إمبراطورية إلى الأبد»، الإمبراطورية التي وعد الإله جوبيتر، كما جاء في «الإلياذة» بأنها «ستكون بلا حدود في الزمان والمكان»<sup>3</sup>، حدثاً عصياً على القبول، حتى لا نقول قابلاً للفهم والتفسير العقلاني، لمن ظن أن هذه الإمبراطورية، غير كل الإمبراطوريات، وُجدت لتبقى.

منذ اليوم الأول لسقوط روما، الحدث الأهم في سلسلة أحداث انتهت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية نهائياً في العام 476 ميلادية، إلى يومنا هذا لا تزال

1- «The Fate of Rome». P. 3.

2- [https://en.wikisource.org/wiki/Nicene\\_and\\_Post-Nicene\\_Fathers:\\_Series\\_II/Volume\\_VI/The\\_Letters\\_of\\_St.\\_Jerome/Letter\\_27](https://en.wikisource.org/wiki/Nicene_and_Post-Nicene_Fathers:_Series_II/Volume_VI/The_Letters_of_St._Jerome/Letter_27).

3 - فيرجيل. «الإلياذة»، الكتاب الأول: 371 375.

محاولات تفسير السقوط محور الكثير من الأعمال التاريخية. آخر تلك الأعمال وأهمها، والتي بدأت باستخدام نمط تفسيري جديد للتاريخ، لا ترى فقط أن الأوبئة أدت دوراً مهماً في السقوط، ولكن ترى أيضاً أن السقوط هو من نتائج التبعات العميقة والبعيدة المدى للأوبئة. فالاتجاهات النظرية الجديدة في كتابة التاريخ، تفترض كمبدأ أساس جدلية التاريخ البيئي والتاريخ الإنساني وترابطهما، وهو ما أسس لإعادة كتابة التاريخ الإنساني، وحتى التاريخ الوطني لبعض الشعوب. وتستند تلك الرؤية ببساطة إلى الإقرار بأن التنمية البشرية والتغير الاجتماعي والتاريخي لهم حدود (وقيود) حقيقية، وأن تلك الحدود، إلى حد كبير، هي إيكولوجية، كما يشير ادmond بيرك وكينيث بوميرانتز في «البيئة وتاريخ العالم»<sup>1</sup>. كنت قد جادلت في مكان آخر، أن خلاصة المجموعة الموسوعية لجمال حمدان «شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان» تلتخص في نتيجتين اثنتين: لا يمكن لمصر إلا أن تكون عربية، وأيضاً لا يمكن لمصر إلا أن تعادي الكيان الصهيوني وجودياً. لتعرف ذلك بالتفصيل، فما عليك إلا أن تقرأ عرض حمدان العبقري لعلاقة جغرافيا مصر بتاريخها، لتفاعل الزمان والمكان الذي أنتج «مجالها التاريخي»، لمكان مصر ومكانتها التي أنتجتها «الملحمة الكبرى للجغرافيا» التي أرخ لها حمدان.

لهذا، لا يمكن إدراك تبعات الأوبئة جدياً إلا بفهم تأثيراتها على الوقائع والتحوّلات العميقة للمجتمعات (النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وحتى الحضارية)، أو على «المدى الطويل»، وليس على حياة الأفراد القصيرة نسبياً، والتي لها زمنها الخاص والسريع، كما يجادل فرنان بروديل في «المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني»<sup>2</sup>. فتلك؛ (أي التحوّلات العميقة) لها زمنها الخاص الآخر والمُختلف أيضاً، الذي تحدث فيه التحوّلات بوتائر أعمق كثيراً وفي أزمنة أشدّ بطئاً، ولهذا فإنها تحدث وتبقى عادة خارج حدود وعي الأفراد والجماعات، وحتى المؤرخين والخبراء أحياناً.

فقد يظهر سقوط الإمبراطوريات في سياق «زمن حياة الأفراد»، نتيجة لسبب

1- Edmund Burke and Kenneth Pomerantz. 2009. «The Environment and World History». Berkley: University of California Press.

2- Fernand Braudel. 1995. «The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II». Berkley: University of California Press.

مباشر وواضح، كهزيمة عسكرية كبرى مثلاً، أو بسبب عدم كفاءة رئيس أو إمبراطور (كما يتمّ لوم «رومولوس أوغسطس»، الإمبراطور الأخير للإمبراطورية الرومانية الغربية الذي حكم من العام 460م إلى العام 476م). لكن الفهم العميق يتطلب إدراك الأحداث في سياق الزمن الاجتماعي والجغرافي الطويل والبعيد المدى. حينها فقط، ستبدو الأحداث التي نعيشها كأفراد، وربما نحسبها حاسمة جداً أحياناً، مجرد «القشة التي قصمت ظهر البعير»، كما يقول العرب. فحتى إدوارد غيبون، المرجع التاريخي الأهم لتاريخ الإمبراطورية الرومانية وصل إلى نتيجة مشابهة، على الرغم من أن النمط التفسيري الجديد للتاريخ لم يكن قد تطور أصلاً في زمنه. فهو يجادل في الجزء الثالث من سداسيته «تاريخ أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» أن «ازدهار (الإمبراطورية) قاد إلى نضج (أو تخمّر) حالة التعفن والانحلال، فيما تضاعفت أسباب الخراب مع كل غزو جديد قامت به الإمبراطورية»، ولهذا، «فبمجرد أن يُقوّض الزمن، أو حدث ما، الحوامل الاصطناعية، فإنّ النسيج الهائل (للإمبراطورية) سينهار تحت ضغط وزنه الكبير»<sup>1</sup>.

### جدلية الاجتماعي والبيئي: سقوط روما صعود الصين

مع تأسيس سلالة سونغ، في العام 960 ميلادية، كتب ويليام ماكنيل: «انتشر نظام بيروقراطي ناجح نسبياً في معظم أنحاء الصين، وأصبح النمط العقلاني المتميز لتدريب كبار المسؤولين واختيارهم أمراً طبيعياً وعادياً. وفيما لا يفترض أحد أنّ القمع الرسمي قد توقف تماماً، إلا أنّ نطاقه كان أقلّ كثيراً في عهد سلالة سونغ ممّا كان عليه في الأزمنة السابقة. وفي الوقت نفسه، كان الإشراف المنهجي للطبقة الحاكمة يميل إلى التحقق، أكثر ممّا سبق، من الفساد الصّارخ والحدّ منه. وبثت التوسّع الهائل للسكان في الجنوب أنّه تمّ تحديد الإجراءات والضرائب التقليدية على مستوى يسمح للفلاحين بالازدهار من عملهم الشاقّ في الحقول، على الأقل طالما كان يمكن إضافة أراضٍ جديدة كافية للزراعة لاستيعاب فائض النسل»<sup>2</sup>.

1- Edward Gibbon. (1782) 1843. «History of the Decline and Fall of the Roman Empire». V3. Pp. 1705 (iBook).

2- William McNeill. 1976. «Plagues and People». NY: Anchor Books. Pp. 122-123.

ما كتبه ماكنيل، أعلاه، يُمثّل الفارق الأساس الذي ميّز الصين وتعاطيها مع الأوبئة في تلك المرحلة (القرن العاشر) عن الإمبراطورية الرومانية، والتي كانت قبلها بقرون، وقاد إلى تفوّق النموذج الصيني ونجاحه نسبيًا، فيما قاد النموذج الآخر الذي أسهم في زيادة الاختلال في العلاقة بين الطفيليات الصغرى (الفيروسات) والكبرى (بفرض المزيد من الضرائب ونهب أطراف الإمبراطورية والفقراء على الرغم من معاناتهم من الأوبئة) لزوال الإمبراطورية الرومانية. فبحلول العام 1200م، بلغ عدد سكان الصين حوالي 100 مليون نسمة، وبدأت الكثافة السكانية، التي أصبحت مألوفة لاحقًا، تظهر في وادي النهر الأصفر ونهر اليانغتسي والمناطق الجنوبية لأول مرة في تاريخ الصين الطويل، بعد انتكاسات كبرى أصابت النمو السكاني على مدى قرون مضت، وأدت، في أحيان كثيرة، إلى انخفاض حاد جدًا في عدد السكان بسبب الأوبئة<sup>1</sup>. فعلى الرغم من تشابه أداء بعض السلالات التي حكمت الصين وطريقة عمل إداراتها لنماذج الحكم في أوروبا ومنطقة المتوسط في مواجهة الأوبئة في القرون السابقة، كان نجاح نموذج سلالة سونغ (960م-1279م) يعتمد أساسًا على الوصول إلى توازن (أو الحدّ من الخلل على الأقل) بين التطفّل الصغير، أو الجزئيّ (الفيروسات) والتطفّل الكليّ، أو الكبير (توزيع الدخل والثروة)، عبر تغيير علاقات توزيع فائض القيمة لمصلحة المنتجين الحقيقيين. فبالإضافة للحاجة إلى مواجهة الطفيليات الدقيقة والتأقلم مع الظروف

1- «هناك سبب كاف للاعتقاد بأن عدد سكّان الصين انخفض بشكل حادّ من إجمالي 58 مليون ونصف مُسجّل العام 2 ميلادية» يقول ويليام ماكنيل. فكما كان «الحال في مناطق البحر الأبيض المتوسط حينها، أدّى التعقّن السكانيّ إلى تعطيل الإدارة، فيما كانت السجّلات التي تمّ الحفاظ (والعثور) عليها مجزأة وغير موثوقة. لكن، عندما حصل تعداد آخر يمكن الاعتماد عليه أكثر للصين، في العام 742م، كان عدد المواقد (مواقد الطبخ) المُسجّلة حوالي 8.9 مليون موقد، بينما في العام 2م، تمّ تسجيل إجمالي 12.3 مليون موقد. وفيما تشير العوائد الإحصائية المجزأة المختلفة إلى انخفاض كبير في عدد السكان في أجزاء معينة من الصين، خاصّة في الجنوب، ربما بسبب الأمن مقارنة بمناطق أخرى بسبب الغارات البدوية أكبر من موازنته بخطر المرض الثقيل المسؤول عن النقص في عدد الفلاحين الذين يتبعون أسلوب الزراعة الصيني. فبحلول منتصف القرن الخامس، على سبيل المثال، لم تسجّل المنطقة المحيطة بنانجينغ في منتصف نهر اليانغتسي سوى خمس (25%) من عدد المواقد التي تمّ تسجيلها في العام 140م. وفي حين أنّ التعقّن السكانيّ في الشمال كان كبيرًا، لم يكن كبيرًا نسبيًا مقارنة بالجنوب» (ص: 119-125).

البيئية في وادي اليانغتسي والمناطق الجنوبية تحديداً، حيث انتشرت الأوبئة وواجه السكان بسببها ما يشبه الإبادة في حالات عديدة، كانت هناك أيضاً ضرورة لإعادة النظر في العلاقات الإنتاجية، وتغيير آليات ونسب التوزيع حتى يتمكنوا من مواجهة الوباء وتعويض الخسائر السكانية والاقتصادية. لهذا لجأت البيروقراطية الجديدة (في الصين) لتقنين التطفل الكلي المنظم وتنظيمه المتمثل بالنهب «الشرعي» لكبار الملاك والضرائب التي فرضتها بيروقراطية الدولة، وحصص كل من عاش على حساب المنتجين الحقيقيين. هكذا، مكنت هذه السياسة الفلاحين الصينيين من الاحتفاظ بما يكفي من إنتاجهم ليمكنوا من تعويض خسائرهم البشرية والمادية عبر الحد من تغول التطفل الكبير. وهكذا أيضاً تمكن الفلاحون من الحفاظ على معدل زيادة طبيعية، أو نمو سكاني كبير، على مدى أجيال عدة، وبدأت بعدها ملايين من البشر تملأ مزارع الأرز في المساحات الشاسعة نسيباً في وسط الصين وجنوبها.

ولأن الخلل في العلاقة بين التطفل الصغير والتطفل الكبير أسس لتعفن، ولاحقاً إلى سقوط إمبراطوريات، أو انهيار سلالات إمبراطورية، فإن النمط التفسيري للتاريخ الذي تعتمده تلك المحاولة يمكن له أن يضيء على مدى خطر الاقتصاد النيوليبرالي في المواجهة التي تقودها الإنسانية هذه المرحلة مع وباء كورونا. القضية، كما سنرى، لا يكمن حصرها فقط في تبعات الحد الكبير من الإنفاق الاجتماعي والصحي فقط، أو حتى في خصخصة المنظومات الصحية. الخلل الراهن والحاد في العلاقة بين التطفل الصغير والتطفل الكبير، سيجعل المواجهة، أو حتى مجرد التأقلم، مع وباء كوفيد 19، أصعب بما لا يقاس مما لو كانت الإنسانية تتبنى أنموذجاً اقتصادياً اجتماعياً أكثر عدالة وأقل نهباً بالحد الأدنى. لكن الأهم حتى من هذا القلق، هو الدور الذي أدته، ويمكن أن تؤديه، الأوبئة في التحولات التاريخية والاجتماعية العميقة بعيدة المدى، وأسهمت في صعود إمبراطوريات وسقوطها، وفي إبادة شعوب وثقافات عمرها آلاف السنين، وغيّرت مسار التاريخ.

## الأوبئة والتاريخ

قبل أقل من قرن بقليل (في العام 1935م)، نشر عالم البكتيريا الأميركي هانز زينسر كتابه الأشهر، «الفئران، القمل، والتاريخ»،<sup>1</sup> بتصدير لافت يعكس إدراكاً لخروجه قليلاً على التقليد السائد في التأريخ حينها، والمتمثل في استثناء شبه كلي لأي دور للأمراض والأوبئة في تشكيل الأحداث التاريخية، حتى لا نقول تغيير أو تحديد مسارها كلياً. لكن، وعلى الرغم من اكتفاء زينسر بالعمل فقط على تبيان دور تفشي وباء التيفوئيد في «إرباك أفضل خطط الملوك وقادة الجيوش» في التاريخ، كما قال<sup>2</sup>، إلا أنه يمكن عدّ كتابه هذا مقدّمة لنمط تفسيري جديد للتاريخ سيتطوّر لاحقاً وسيعيد تشكيل فهمنا للتاريخ في السنوات اللاحقة، بإدخاله متغيّرات غير اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية في صناعة التاريخ. ففيه يزعم زينسر: «أنّ التيفوئيد، مع إخوته وأخواته الآخرين (كالطاعون، والكوليرا، والتيفوس، والزحار، أو الديدناتاريا)، حَسَمَ مصير حملات عسكرية أكثر بكثير من يوليوس قيصر، وهانيبال، ونابليون، وأكثر بكثير من كل الجنرالات الآخرين المرموقين في التاريخ». وفيما يتمّ إلقاء اللوم على الوباء لتبرير الهزيمة أحياناً، «يحصل الجنرالات دائماً على السمعة والفضل في النصر، مع أنه من المفترض أن يكون الأمر عكس ذلك تماماً». ويسبب هذا الإدراك، ولو المحدود، لدور الأوبئة؛ (أي دور الأوبئة في تحديد مصير الحملات العسكرية وحسمها)، يفترض زينسر أنه «ربما سيأتي اليوم الذي يتغيّر فيه تنظيم الجيوش؛ بحيث يقوم الضابط (العسكري) بتنفيذ أوامر الطبيب العام في الجيش ويخضع له، لا العكس»<sup>3</sup>.

لكن دور الأوبئة، في الحقيقة، وكما سنرى، أكبر وأكثر تعقيداً من مجرد حسم معركة عسكرية، أو حتى تغيير مسارات حروب كبرى، أو تبعات ذلك على المسار الذي قد يأخذه التاريخ نتيجة لهذا الدور يذكر ويليام ماكنيل في كتابه الفدّ «أوبئة وبشر» أنّ الحرب البلوبونيزية الشهيرة بين أثينا واسبرطة في الثلث الأول من القرن الرابع قبل الميلاد ربما تكون قد حُسمت فعلاً؛ بسبب وباء أصاب الجيش

1- Hans Zinsser. (1935) 2011. «Rats, Lice, and History». London: Transaction Publishers.

2- «Rats, Lice, and History», P. 152.

3- «Rats, Lice, and History», P. 153.

الأثيني، كما ذكر ثوسيديس، المؤرخ الأهم لتلك المواجهة التاريخية الكبرى. لذلك، يتساءل ماكنيل: «كيف (وكم) كان التاريخ السياسي (والاجتماعي) اللاحق لـ (منطقة) البحر المتوسط سيختلف لو انتصرت أثينا بتلك الحرب؟»<sup>1</sup>.

القضية الأساسية في هذه القراءة ليست أن حسم المعارك والحروب مرتبطة حصراً وأساساً بإصابة الجيوش بالفيروسات، أو حتى بانتشار الأوبئة في صفوف الجنود والمقاتلين؛ بل بفهم دور الأوبئة والفيروسات في التحولات العميقة والبعيدة المدى التي تصيب بنية المنظومات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وما الإرهاق والتعب الذي يصيب مجتمعات تلك الجيوش نتيجة الأوبئة وبنهكها إلا أحد تجلياتها فقط، على الرغم من أن مفاعيل ذلك الإنهاك وتبعاته تكون أيضاً عادة عميقة وطويلة المدى وقد تمتد لعشرات، أو مئات السنين. فضعف المجتمعات وترهلها واستنزافها من قبل الأوبئة (اقتصادياً، وديمغرافياً، وسياسياً، واجتماعياً، وتعليمياً، وأيديولوجياً، إلخ...) سينعكس حتماً على الجيوش وعلى أداؤها، حتى لو كانت سليمة ومعافاة من الأمراض. هكذا، مثلاً، يرى بعض المؤرخين أحد أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية الأساسية (دخلت الأوبئة مجال دراسة سقوط الإمبراطورية الرومانية وتفسيرها مؤخراً فقط، مثل كتاب كايل هاربر الذي صدر قبل عامين: «مصير روما: المناخ، المرض، ونهاية إمبراطورية»<sup>2</sup>)، فيما يجادل مؤرخون آخرون أن التبعات العميقة والبعيدة المدى للأوبئة كانت أحد أسباب نجاح المسلمين في هزيمة كل من الفرس والروم. ففي «أوبئة وبشر» يجادل وليام ماكنيل أنه «وكما في حالة الأوبئة العظيمة السابقة (165م-180م) ومن (251م-266م)، كانت الآثار السياسية لذلك الطاعون بعيدة المدى. في الواقع، إن فشل جهود جستينيان الأول (الإمبراطور البيزنطي 525م-548م) لاستعادة وحدة الإمبراطورية في البحر الأبيض المتوسط يمكن أن يُعزى إلى حدٍ كبير إلى تناقص الموارد الإمبراطورية الناتجة عن انتشار الطاعون، وكذلك يمكن عدّ فشل القوات الرومانية والفارسية في تقديم أكثر من مجرد مقاومة رمزية للجيوش الإسلامية التي اجتاحت الجزيرة العربية فجأة في العام 634م، يصبح أسهل للفهم في ضوء

1- «Plagues and People». P. 93.

2- Kyle Harper. 2017. «The Fate of Rome: Climate, Disease, and the End of the Roman Empire.» Princeton: Princeton University Press.

الكوارث الديموغرافية التي أصابت وبشكل متكرر سواحل البحر المتوسط من العام 542م فصاعداً، ورافق المسلمين في المراحل الأولى من توسعهم الإمبراطوري<sup>1</sup>. لكن كتاب زينسر، ومثله القليل، حتى وقت قريب، مَمَّن التفت جزئياً إلى دور الأوبئة وتأثيرها في الأحداث، لم يتضمَّن اعتماد نمط تفسيري جديد كلياً للتاريخ؛ بل ظَلَّت الأوبئة في تلك السرديات تبدو مجرد انفجارات مفاجئة، غير متوقَّعة، وحتى خارجة على القاعدة والمنهجية التقليدية التي استمرت في إلهام المؤرخين عموماً، وحتى بدت دائماً استثناءً لها. وفي الوقت نفسه، ظَلَّت مقدمات بعض أسس هذا النمط التفسيري، على الرِّغم من محدوديته الكبيرة حتى ذلك الوقت، موضع اهتمام عدد قليل جداً فقط من المؤرخين المحترفين والمُتخصِّصين الذين غيَّروا لاحقاً طريقة تفكيرنا في التاريخ عبر إدخال دور الأوبئة وتفسير صعود الإمبراطوريات وأفولها.

تلك قضية، إذن، مرتبطة بفهم كتابة التاريخ ورؤيته. أحد أسباب القصور الذي أسس لذلك الخلل المعرفي الذي تجاهل دور مُتغيرات وعوامل قد تكون حاسمة أحياناً في صناعة التاريخ لمصلحة المتغيرات التقليدية السائدة، برأيي، هو هيمنة المركزية المعرفية الأوروبية، والرؤية الحداثوية للتاريخ والمجتمع. فتلك الرؤية تفترض أن مسار التاريخ يخزن معنى وغاية (هكذا ينتهي كل استنتاج في أي مجال عادةً بفوقية أوروبا والغرب، ودونية مجتمعات الجنوب، كون المركزية المعرفية الأوروبية أحد أدوات الهيمنة)، وتفترض كذلك حتمية انتصار الإنسان الحديث وخضوع الطبيعة. في الحقيقة، حتى الإمبراطورية الرومانية، كما رأينا، اعتقدت في أوج صعودها أنها لم تُطوِّع البشر وتُخضعهم فقط؛ بل والطبيعة أيضاً، كما يشهد على ذلك طقوس استعراضهم لأكثر الحيوانات المفترسة ضراوة، كالأسود والنمور، في احتفالات الإمبراطورية الكبرى، والتي كانت تنتهي بقتلها على مرأى من الحضور في المنتدى الروماني. لكن نهاية الإمبراطورية كانت، من ضمن أسباب عديدة، نتيجة تحولات عميقة بعيدة المدى استمرت لعقود أدت الفيروسات، الأصغر بما لا يقاس من الأسود أو الفيلة، دوراً مهماً فيها، كما يشير كايل هاربر في «مصير روما»<sup>2</sup>.

1- «Plagues and People» P. 113.

2- «The Fate of Rome». P. 2-3.

الأهمّ من ذلك، أنّ المنظور والمنهج المعرفيّ الأوروبيّ المركزيّ، والمنظور الحديث عموماً، وبسبب بنيته وطبيعته والفلسفة التي يستند إليها يعمد عادة لأن «تكون التجربة الإنسانيّة منطقيّة»، أو مفهومة، كما يقول ويليام ماكنيل في «أمراض وبش». ولهذا «يلبّي المؤرّخون عادة هذا المطلب من خلال التأكيد (فقط) على عناصر في الماضي يمكن حسابها، وتعريفها، وقياسها، وتحديدتها بدقّة، ويمكن أيضاً حتى التحكم فيها في كثير من الأحيان». ولهذا السبب بالضبط، عندما كان دور الأمراض والأوبئة حاسماً في قضايا الحرب والسلم، وعندما أصبح (بالتالي وبالضرورة) يتعارض مع الجهود المبذولة من قبل المؤرخين ومنهجيتهم التقليديّة لجعل الماضي مفهومًا (وقابلًا للحساب والتحديد الدقيق والتعريف والقياس، كما هي المنهجية الحديثة)، تمّ التقليل من أهميّة دور الوباء وحتى استثنائه.

### كيف يجب أن نفكر بدور الأوبئة في التاريخ؟

يتجاوز ماكنيل، في «أمراض وبش»، كثيرًا ما بدأه زينسرفي «الفئران، القمل، والتاريخ»، وينتمي إلى فئة صغيرة جدًّا من المؤرخين المحترفين الجادّين الذين رأوا مهمّتهم في شرح الماضي، وفي التفسير التاريخيّ، عبر إدخال تاريخ الأمراض المعدية وتاريخ الأوبئة من خلال إظهار كيف أنّ الأنماط المختلفة لتداول الأمراض قد أثرت (وأحيانًا بشكل حاسم جدًّا) على الشؤون البشريّة في العصور القديمة والحديثة، وحتى على مسار التاريخ ذاته. ربّما يكون الأهمّ بينهم حتى الآن، غير ماكنيل طبعًا، كتاب ألفريد كروسبي «الإمبرياليّة الأيكولوجيّة: التوسّع البيولوجيّ لأوروبا 900م-1900م»<sup>1</sup>. فلقد أعاد كروسبي، وبشكل ملموس، وعبر استخدام البيانات المتوفّرة إلى حدّ كبير (وليس فقط عبر النظريّة والمنهج الجديد) رواية حقبة مهمّة من التاريخ الإنسانيّ عبر تقديم رواية مؤسّسة على العوامل الأيكولوجيّة والبيولوجيّة للتاريخ الإنسانيّ منذ القرن العاشر، وحتى إعادة قراءة أهمّ التجارب الاستعماريّة الأوروبيّة وأسباب نجاح أو فشل بعضها ارتباطًا بأسباب بيئية وبيولوجيّة (من مناخ، وتربة، ورياح إلى أوبئة، وبيولوجيا، ومناخ). هكذا، إذن، لم يعد تاريخ الأمراض، أو دور الأوبئة في التاريخ، للمرة الأولى ربما، مجرد اختصاص محدد

1- Alfred Crosby. 2004. «Ecological Imperialism: The Biological Expansion of Europe, 900-1900». Cambridge: Cambridge University Press.

ومحدود جداً (كـبعض مدارس علم الآثار المُتخصّصة جداً)، يقوم في سياقها مجموعة من المؤرّخين والباحثين المُتخصّصين فقط بتسجيل بيانات عن الأوبئة وانتشارها، وعن عدد ضحاياها لمجرّد أنّها متوفّرة في الأرشيفات، أو لمجرّد أنّها حدثت فعلاً، بينما لا يسجّلون لها أيّ تبعات تاريخيّة كبرى، أو حتى محدودة أحياناً. ولهذا، تبقى، وتبدو، من دون معنى على الإطلاق في سياق الصورة الكبرى للتاريخ.

من أجل فهم وشموليّة أكثر لدور الأوبئة في التاريخ، طبعاً، هناك ضرورة لدمج كل تجارب الشعوب عبر فحص دقيق ومعتمّق للنصوص الأركيولوجيّة القديمة المتوفّرة من قِبَل خبراء في كلّ اللّغات، ومن كلّ المجتمعات. فكلّ ما دخل التاريخ، للأسف، في هذا المجال حتى الآن يبدو مقتصرًا على التجربة الأوروبيّة، وعلى ما كُتب باللّغات الأوروبيّة عمومًا. فمنذ اقتحام فيروس كورونا لحصون القوى العظمى بدأت وسائل الإعلام الغربيّة وغير الغربيّة تستعيد وتروي سرديّات من تاريخ الأوبئة، لكنّها كانت بالإجمال سرديّات أوروبيّة حول الأوبئة التي ضربت أوروبا والأوروبيين، أو بالحدّ الأدنى، تأثرت بها أوروبا والأوروبيين (في أثناء حقبة الاستعمار مثلاً). ربما سمع، أو قرأ، أو عرف الجميع، مثلاً، تلك المرحلة عن «الموت الأسود»، أو «الإنفلونزا الأسبانية»، وغيرها. لكن تلك المركزيّة الأوروبيّة المعرفيّة لا تستثني فقط ما حلّ بغير الأوروبيين (إلا بشكل هامشيّ وفقط حين يكون مرتبطًا بأوروبا)؛ بل وتستثني الأدوار الأهمّ التي أدتها الأوبئة على الإطلاق في تغيير مسار التاريخ البشريّ بشكل كبير أحياناً.

فلا يمكننا، مثلاً، تفسير كيف استطاع أقلّ من 600 بحارًا ومغامرًا أسبانيًا، بقيادة هيرنان كورتيز في أوائل القرن السادس عشر، القضاء على إمبراطوريّة الأزتيك العريقة في المكسيك بالقوّة العسكريّة فقط. في الحقيقة، هذا يبدو مستحيلًا، خصوصًا إذا علمنا أنّ الأمراض التي جلبها الأسبان معهم قضت على أكثر من ثلث سكان تلك الإمبراطوريّة. والأمر نفسه ينطبق على حملة فرانسيسكو بيزارو على إمبراطوريّة الإنكا التي كانت في أوائل القرن السادس عشر الإمبراطوريّة الأكبر مساحة جغرافيًا في زمنها على الإطلاق. أمّا ما حلّ بالسكّان الأصليين في أميركا الشماليّة فلربّما يكون المثال الأهمّ على حدث تاريخيّ مفصليّ جدًا كان للبيولوجيا والأوبئة دور حاسم فيه، وغيّر وجه التاريخ، مع أنّنا لم نسمع عنه مطلقًا مع حلول

جائحة الكورونا. فبحسب إحصاء العام 1890م، لم يبق من السكّان الأصليين سوى ربع مليون فقط (250 ألفاً) من أصل 18 مليوناً ونصف كانوا يقطنون أميركا مع بداية الاستعمار الأوروبي. وليعرف المرء حجم الكارثة يمكنه فقط قراءة المقارنة الآتية التي أُدين بها لصديقي وأستاذي (منير العكش): حين وصل كولومبوس إلى أميركا، كان عدد سكان الجزيرة البريطانية أربعة ملايين فقط، وفي العام 1900م، كان عددهم 41 مليوناً؛ (أي أكثر من عشرة أضعاف ما كان عليه في مرحلة كولومبوس). هذا يعني أنّ عدد السكان الأصليين في المنطقة التي تسمى اليوم الولايات المتحدة، «لو تزايدوا بالنسبة نفسها، لوجب أن يكون عددهم في العام 1900م في حدود 185 مليون إنسان». لكن المجزرة الرهيبة التي ارتكبتها الأوروبيون بحقهم أبت 250 ألفاً منهم فقط بحلول العام 1890م، وطبعاً كان للأوبئة التي حملها الأوروبيون دور كبير في تفسير تلك الأرقام المرعبة، ولاحقاً في قيام الإمبراطورية الأميركية التي هيمنت على العالم.

إضافة إلى ذلك، حين كان سكّان إمبراطورية الأزتيك يموتون بأعداد كبيرة كل يوم من أمراض وفيروسات جلبها الأوروبيون معهم، لم يمت أي من المستعمرين الأسبان. كانوا يمتلكون مناعة وفرتها لهم تجربة طويلة مع الأوبئة التي ضربت القارة الأوروبية، وما سُمّي بـ «العالم القديم». لهذا، قبل سكّان المكسيك حينها ادّعاءات الأسبان أنّ إلههم القويّ يحميهم، فيما آلهة السكان الأصليين التي عبدها لمئات السنين، وأديانهم التي آمنوا بها ومارسوها لقرون، تعجز عن ذلك. هكذا أُبيدت أديان، وثقافات، وأنماط حياة، عمرها آلاف السنين وانتهت إلى الأبد، وبدأ أتباعها بالتحول للمسيحية؛ بسبب التفسير الغيبيّ للوباء حينها، لدرجة أنّ أميركا اللاتينية تُشكل تلك المرحلة نصف العالم الكاثوليكيّ تقريباً. وذلك جانب من دور الأوبئة في التاريخ؛ أي تبعاتها الثقافية، التي يندر أن نسمع عنها؛ لأنها لا تتفق مع السردية الغربية عن صعود هذا العالم وهيمنته ثقافياً أيضاً. في الحقيقة، يربط بعض المؤرخين والباحثين في تاريخ الأوبئة بين تحول الإمبراطورية الرومانية للمسيحية، وحتى دخول البوذية إلى الصين، وانتشار الأوبئة التي اجتاحت تلك الإمبراطوريات<sup>1</sup>. فتلك الأديان وفّرت حينها رؤية جديدة ومختلفة عن الموت ومعناه، ومن ثمّ، كانت قدرتها على المواساة في حالة الانتشار الواسع للموت

1- William McNeill. 1976. «Plagues and People». NY: Anchor Books. P. 121.

أكبر من الأديان التقليديّة التي سبقتها. تبعات الأوبئة يمكن فهمها بعمق، إذن، بالتركيز على دورها في التحوّلات العميقة والبعيدة المدى، وليس فقط على عدد الإصابات والضحايا اليوميّة، كما سنرى.

### الإمبراطوريّة والتطفّل: جدليّة الصعود والأفول

كانت روما، فعلاً، مدينة مذهشة واستثنائية بكلّ المقاييس في زمنها. وصفها الشاعر الرومانيّ كلوديان بأنّها «أعظم من أيّ مدينة أخرى يحيط بها الهواء على وجه الأرض»، مضيفاً أنّ «عظمتها أكبر بكثير من أن تستطيع أيّ عين أن تراها كلّها، وأنّ سحرها أكبر بكثير ممّا يمكن لأيّ عقل أن يدرك». ولأنّ روما، المدينة، كانت رمز قوّة الإمبراطوريّة ورمز عظمتها، فلقد تمتّع سكّانها، القريبون من المليون نسمة حينها، بوسائل راحة وامتيازات على نطاق إمبراطوريّ غير مسبوقه من قبل. ففي مسح يعود إلى القرن الرابع، كان في روما حينها: «28 مكتبة، و19 قناة مائيّة، وسيركين (من سيرك)، و37 بوابة، و423 حيّاً سكنيّاً، و46602 مبنى سكنيّاً، و1790 بيتاً ضخماً (قصرًا)، و290 صومعة جبويّاً، و856 حماماً عامّاً، و1352 خزان مياه، و254 مخبزاً، و144 مرحاضاً عامّاً، وحتى 46 بيتاً للدّعارة»<sup>1</sup>.

لكن روما التي نشأت من بدايات متواضعة جدّاً، كما رأينا سابقاً، لم يكن ممكناً لها (أو حتى لكل إيطاليا حينها) أن تُتموّل وسائل الرّاحة والبذخ والمعيشة الهائلة التكاليف التي وفرتها المدينة. وإذا كان بعضهم يرى في ما وفّره روما لسكّانها دليل على عظمة المدينة وعظمة الإمبراطوريّة، فإنها في الحقيقة دليل أكبر على مدى طفيليّة المدينة، واعتمادها على النهب الفاحش لأطراف الإمبراطوريّة. لهذا كان سقوط المدينة وسقوط الإمبراطوريّة لاحقاً، من ضمن أسباب عديدة، من تبعات انهيار الأطراف التي عانت من تغول تطفّل مزدوج<sup>2</sup>. ففي المرحلة التي

1- Kyle Harper. 2017. «The Fate of Rome: Climate, Disease, and the End of the Roman Empire.» Princeton: Princeton University Press. P. 1.

2- لم يكن تفشّي المرض شيئاً جديداً في التاريخ الرومانيّ، ففي القرن الثاني الميلاديّ، يسجّل المؤرّخون ما لا يقلّ عن أحد عشر حالة من الكوارث المرضيّة في العصور الجمهوريّة، كان أقدمها في العام 387 ق.م. أمّا في عصر الإمبراطوريّة، فلقد بدأ المرض ينتشر في العام 165 بعد الميلاد، وانتقل إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط في البداية من قبل القوّات التي كانت تقوم بحملات عسكريّة، وانتشر لاحقاً في ←

عانت منها أطراف الإمبراطورية من الفيروسات والأوبئة (التطفل الجزئي)، ازداد النهب والضرائب لتمويل عمليات الإمبراطورية، وأسلوب حياة المدينة الطفيلية (التطفل الكلي) عليها بدلاً من تخفيف التطفل والنهب، كما فعلت سلالة سونغ في الصين بعدها بقرون لمساعدة الأطراف على مواجهة الأوبئة. لهذا، فإذا كانت روما استثنائية فعلاً، وإذا لم يكن هناك مدن أخرى مثلها على «وجه الأرض»، فلم يكن ذلك حقاً؛ لأنها كانت عظيمة في حد ذاتها، كما ادعى كلوديان. بل؛ لأنه لم يكن خلف المدن الأخرى إمبراطوريات قادرة على النهب وتمويل البذخ الإمبراطوري الذي تمتعت به روما. لكن، حال روما حينها شبيه بحال أغلب المدن الكبرى، حتى الحديثة منها، كما سنرى في حالتي لندن وشيكاغو. وفي حالة ما أسميه «المدينة المستوطنة»، كلندن وشيكاغو وملبورن ونيويورك وغيرها من المستوطنات، فإن التطفل الكلي لبعض المدن لم يصل فقط إلى حد غير مسبوق في تغوله، ولكنه امتد ليصل إلى كل أركان الأرض. هكذا يصبح مصير الإمبراطورية التي تصعد بتغول تطفلها، تسقط أيضاً، وتحفر قبرها، بسبب هذا التطفل، خصوصاً إذا كانت الأطراف تعاني من التطفل الصغير أيضاً. لهذا، فكما كان (أو لا يزال) يرمز صعود بعض تلك المدن لقوة العالم «الأنكلوساكسوني» وسقوطه، فإن تبعات أفولها الجاري الآن على العالم ستكون أكبر حتى من تبعات سقوط روما، خصوصاً أن الخلل بين التطفل الكبير والصغير محلياً وعالمياً يتفاقم ويتصاعد أكثر في سياق النموذج النيولبرالي المتوحش.

أنموذج المدينة هو أفضل الخيارات الممكنة لاستعراض جدلية الطفيليات الكبرى والصغرى وتبعاتها، ومن ثم، تفسير دور الأوبئة في التاريخ، وحتى جدلية صعود الإمبراطوريات وأفولها. وليس ذلك فقط لأن المدينة تمثل أنموذج التطفل الأقصى الممكن و«مص دماء» الأطراف فقط. وليس ذلك لأن «المدن المستوطنات» والمدن الأوروبية عموماً، وسعت مجال تطفلها واعتمادها إلى خارج حدود الدولة- الأمة، ليصل إلى العالم كله أيضاً؛ بل بسبب طبيعة المدينة وبنيتها

← جميع أنحاء الإمبراطورية في السنوات التالية. وعلى الرغم من أنه لا يوجد اتفاق على طبيعة المرض، إلا أن «الطاعون»، أو «الجدري» هما الأكثر ترشيحاً بناءً على الأدلة المتوفرة. استمر انتشار الوباء لأكثر من خمسة عشر عاماً، واستفحل في أماكن مختلفة من سنة إلى أخرى، وكان يعود أحياناً إلى المدن المتضررة سابقاً.

التي تشبه الإمبراطورية ذاتها، أو أنها، بتطّفلها، تُشكّل صورة مُصغّرة عنها. فالدور الذي تؤدّيه المدينة في تصعيد الخلل بين التطفّل الكبير والصغير يجعل الأوبئة أكثر فتكاً في الأطراف، ومن ثمّ، حتمية تأثيرها عليها هي وسقوطها لاحقاً. كذلك، يمكن أن نجد بعض آليات (وتفسيرات) صعود الإمبراطوريات وأفولها في بنية المدينة وطبيعتها، أو المشهد الحضري في حدّ ذاته. بشكل أدقّ، هناك علاقة تاريخية بين الأوبئة (ودورها في التاريخ) وتحولات صيغ الاجتماع الإنساني التي قادت، وتقود، باستمرار لاضطراب وخلل في العلاقة التي تربط الأمراض المعدية والأوبئة (الطفيليات) وصيغ الاجتماع الإنساني المتغيرة.

فمنذ العصر الحجري الحديث، أو ما يسمّى «الثورة الحجريّة الجديدة» الذي ترافق مع بدء استقرار البشرية في مجتمعات ثابتة (قبل 12 ألف عام تقريباً)، وتحديدًا في ما يطلق عليه «العالم القديم»؛ (أي آسيا وأفريقيا وأوروبا)، أصبح الميل التاريخي لأن تكون الأوبئة أشدّ فتكاً ممّا سبق. فالاستقرار الإنساني، ولاحقاً التبادل والتواصل بين المجتمعات، هو ما جعل الأوبئة أكثر انتشاراً وفتكاً، وليست الفكرة الساذجة السائدة أنّ تلك الأوبئة، أو الفيروسات تظهر (أو تتطور) فجأة يجادل وليام ماكنيل أنّه وعلى الرّغم من أنّ وباء الأيدز انتشر في الثمانينيات من القرن الماضي، إلا أنّ الأدلّة على وجود فيروس (اتش آي في) قبل ذلك التاريخ بعقود على الأقل، إن لم نقل قرون، تؤكّد أنّ تحولات ما في صيغة الاجتماع الإنساني قد تكون أحد الأسباب وراء انتشاره. ففي المرحلة التي سبقت العصر الحجريّ الجديد، وقبل استقرار البشر في تجمّعات كبيرة وبدء ظهور التطفّل الكبير، عرّف البشر أيضاً الكثير من الأوبئة الفتاكة. لكن قضاء الأوبئة على مجموعة بشرية ما كلياً، أو جزئياً، لم يكن ليؤثّر في مجموعات أخرى بعيدة عنها، لا تتبادل ولا تتواصل معها، والأهمّ لا تعتمد عليها في تمويل استمرارها.

هذا، وتحديدًا، هو السبب الرئيس الذي وُضِعَ العالم القديم (أوروبا وآسيا) في موقع امتياز كبير جدّاً في مقابل ما سُمّي بـ «العالم الجديد» (الأميركيتين وأستراليا)، وجعل من الأوبئة، كما يجادل ألفريد كروسبي<sup>1</sup>، أحد عوامل انتصاره وصعوده على حساب الشعوب الأصليّة التي أبيد بعضها إلى الأبد. فتأخّر الانتقال

1- Alfred Crosby. 2004. «Ecological Imperialism: The Biological Expansion of Europe, 900-1900». Cambridge: Cambridge University Press.

للعصر الحجريّ الجديد في «العالم الجديد» لآلاف السنين عن «العالم القديم»، ومن ثمّ، تأخّر ظهور الاستقرار، واختلاف صيغ الاجتماع الإنسانيّ فيه عن العالم القديم حرّم شعوبه من تجربة الأمراض، ومن ثمّ، إمكانيّة التكيف معها، أو اكتساب مناعة مناسبة لها لاحقاً (وهذا له أسبابه الإيكولوجيّة والتاريخيّة طبعاً، وليس بينها مطلقاً أيّ «تفوّق» أوروبيّ، أو أيّ خصوصيّة ثقافيّة بتلك الشعوب). لذلك، كان اللقاء الأول بين شعوب العالمين مع الغزو الأوروبيّ للأميركيّتين قاتلاً جداً، ودفعت الشعوب الأصليّة في الأميركيّتين وفي أستراليا ونيوزيلندا ثمناً باهظاً تجاوز في بعض الحالات الموت ذاته، ووصل إلى حدّ الإبادة الثقافيّة هذا يعني أنّ صعود بعض مدن المرحلة الاستعماريّة (مدن المستعمرات) ارتبط مع أو حتى كان مشروطاً بالقضاء على الشعوب الأصليّة، وأنماط حياتهم وثقافتهم إلى الأبد. لهذا، لم تنجح المشاريع الاستعماريّة الأوروبيّة في الأميركيّتين وأستراليا لأيّ سبب ثقافيّ، وهذا تفسير عنصريّ له جمهوره. ولم تنجح حتى نتيجة تفوّق عسكريّ، أو تقنيّ، أو اقتصاديّ فقط؛ بل أدت الإيكولوجيا والبيولوجيا دوراً حاسماً أيضاً.

### تطلّع المدينة المستوطنة: صعود العالم الأنغلو سكسوني

شيكاغو، لا نيويورك، هي «درّة تاج الهندسة المعماريّة الأميركيّة». يكفي أن تتصفّح كتاب جون زوكوسكي «بناء شيكاغو: تحف الهندسة المعماريّة»<sup>1</sup>؛ لتدرك أحد أسباب توصيف صعود تلك المدينة «بأحد أكثر الأشياء المدهشة في تاريخ الحضارة الحديثة»، كما ورد في أحد الاقتباسات عند جيمس بيليش في «تجديد الأرض: ثورة الاستيطان وصعود العالم الإنجليزي»<sup>2</sup>. وبيليش يسرد لنا في كتابه جانباً واحداً، ومهمّاً، فقط من قصّة تلك المدينة التي يمكن عدّها بامتياز الأنموذج المثاليّ لقصّة صعود العالم الأنغلو سكسوني. فقصّة بناء شيكاغو المثيرة وصعودها، كولونياليتها الديموغرافيّة، وتاريخها القصير جداً، تشبه كلّها إلى حدّ كبير قصة صعود العالم الأنغلو سكسوني ذاته وتمدّده وهيمنته، ولاحقاً إعادة تشكيله للعالم

1- John Zukowsky. 2016. Building Chicago: The Architectural Masterwork. NY: Rizzoli.

2- James Belich. 2009. Replenishing the Earth: The Settler Revolution And The Rise Of The Angloworld. Oxford: Oxford University Press.

كله وفق مقاييسه وشروطه ومصالحه. لكن، كما يمكن لقصة مدينة أن تسرد صعود إمبراطورية وقصة عالم جديد، كما هي حال شيكاغو، يمكن لها أيضًا أن تحتزن قصة أفول هذا العالم وصعود عالم آخر، كما تعلمنا قصة روما.

الاسم: شيكاغو؛ يأتي من الكلمة الهندية المحليّة التي تعني حرفيًا بالإنكليزية (skunk weed)، أو «عشبة الظربان» بالعربية، دلالة على الرائحة الكريهة جدًا التي ميّزت ذلك المكان، على الرّغم من التحريف الذي عمّمته لاحقًا الأسطورة المحليّة السائدة في هذه الأيام؛ لتجميل تلك الحقيقة بغسل الاسم إلى «حقل الثوم البرّي». و«عشبة الظربان»، هذه، التي أصبحت لاحقًا «معجزة الحضارة (الغربيّة) الحديثة»، لم تُعرف حتى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر تقريبًا أيّ وجود إنسانيّ حضريّ مستقرّ على الإطلاق. فحتّى نهاية أعوام العقد الرابع من ذلك القرن (أواخر الأعوام 1830م)، تألفت شيكاغو من «حوالي نصف دزينة» من المنازل فقط، وعدد قليل من الخيم الهندية، وفندق واحد، بالإضافة إلى مركز تجاريّ فرنسيّ وحصن أمريكيّ صغير. حينها؛ أي في نهاية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، كان عدد سكان المدينة ما بين 50 إلى 100 إنسان فقط، وهو العدد نفسه الذي كان عليه أيضًا لسنوات عديدة قبل ذلك، عندما كان عدد دافعي الضرائب فيها، ولسنوات، أربعة عشر شخصًا فقط (كوّن أن عدد دافعي الضرائب طريقة لتقدير عدد السكان)<sup>1</sup>.

ثمّ حصلت «المعجزة». بعد أقل من ستين عامًا فقط (في العام 1890م)، وعلى الرّغم من العواثق العديدة والهائلة التي عرفها صعود تلك المدينة، كالحريق الشهير الذي أتى على المدينة كلّها تقريبًا في العام 1871م، أصبحت منازل شيكاغو الستّة أول ناطحات السحاب العنقوديّة وأكثرها كثافة في العالم، وبلغ عدد سكانها حينها 1.1 مليون نسمة (يقارب عدد سكان شيكاغو الكبرى هذه المرحلة عشرة ملايين إنسان). في عمر جيل واحد فقط، نما «حقل الثوم البرّي» كريحه الرائحة هذا إلى ما يقارب ضعف حجم مدينة روما أو القاهرة التاريخيتين. طبعًا، غالبًا ما يسود التفسير أنّ تلك النوعيّة من المدن أصبحت ممكنة ومستدامة؛ بسبب الثورة الصناعيّة - الزراعيّة الحديثة الضخمة التي قادت لطفرات غير مسبوقه في إنتاجيّة الزراعة (خففت الممكنة ساعات العمالة المطلوبة لإنتاج هكتار من

1- «Replenishing the Earth.» P. 1-2.

القمح من 150 ساعة إلى تسع ساعات فقط). فما بين الآلات الجديدة والتقنيات الزراعية الأفضل، وما بين استخدام أسمدة جديدة وبنود محسنة، إضافة إلى تربية الماشية بعناية، زادت الإنتاجية ما بين الأعوام 1750م-2000م بأكثر من عشرة أضعاف؛ ما جعل توفير حاجات تلك المدن الطفيلية من الأرياف والأطراف ممكناً ومستداماً، فيما كان للاستخدام الواسع للكهرباء، ومحركات البترول، فوق ذلك أثر هائل على تحسين شروط العيش في المدن. لكن ربما يكون بالأهمية ذاتها أيضاً السياق الاستعماري الاستيطاني؛ فالظروف الاستعمارية الاستيطانية وفّرت إمكانية غير مسبوقة لتصعيد التطفل الكبير. هكذا فعلاً صعد عالم «الأنغلو سكسون» ومدنهم وما يسمّى «حضارتهم» أيضاً.

لكن دهشة الأمريكيين، أو بشكل أدق من أصرّ منهم على التصنيف العرقي بـ «الأنغلو سكسون»، بأنموذج شيكاغو وبأنفسهم أيضاً، كانت هائلة لدرجة أنّهم «أدهشوا أنفسهم» بذلك الإنجاز. فلم يستطيعوا، وحتى لم يقبلوا، التفكير في صعود تلك المدينة وفق الشروط التاريخية التقليدية لصعود المدن، أو حتى فهمها، كـ «مدينة مستوطنة»، في سياق موجة الاستعمار الاستيطاني الأبيض والنهب الأوروبي الذي اجتاح العالم حينها على الرغم من الاختلاف في الشروط التاريخية لنشوء مدينة لندن وتمددها عن شيكاغو، إلا أنّ صعودها (أي لندن) الصاروخي أيضاً في القرن التاسع عشر، عمّا كانت عليه قبل ذلك في مرحلة بسيطة، يدين أيضاً للنهب الإمبريالي للعالم، كما سنرى لاحقاً.

ولهذا، فلا أكثر من قرن، ظلّت السردية تتحدّث عن معجزة الأنغلو سكسون الحضريّة المدهشة. فحتى قبل اندلاع الحريق الكبير في العام 1871م، لم يكتفوا بتوصيف صعود شيكاغو بـ «أحد أكثر الأشياء المدهشة في تاريخ الحضارة الحديثة»، كما يخبرنا بيليش، لكن «عظمة» شيكاغو كانت عندهم رمز «عظمة» أميركا ذاتها: «أميركا عظيمة وشيكاغو نبيها». شيكاغو هي روما إمبراطورية الأنغلو سكسون.

الأهم، ربما يكون صعود شيكاغو مدهشاً، كما كانت روما في زمنها. وربما تكون شيكاغو حتى أحد «أجمل» المدن الأميركيّة وأكثرها حداثة. لكن كل ذلك كان بفضل التاريخ وليس رغماً عنه. وهكذا، أيضاً، كان صعود روما التي لا تزال تفتن مؤرخي الغرب، وهكذا كان أيضاً أفولها بفضل التاريخ وفعله وليس رغماً عنه.

لم يكن على أصحاب الخيال «الأنغلو سكسوني» سوى تصفّح القليل من تاريخ بعض المدن العظيمة الأخرى ليدركوا، أولاً، أنّ فكرة العرق «الأنغلو سكسوني» التي ينسبون إليه جوهرانية عرقية أو ثقافية لتفسير ما ظنوا أنه «تفوق»، ليست أكثر من خيال وأسطورة حديثة اخترعت في العصر الحديث؛ لتبرير همجية الإمبريالية الأوروبية. وثانياً، أنّ مدن كِبغداد العربية في العهد العباسي، أو كاي فنغ وبيجين الصينية، أو حتى روما، كانت كلها مدعاة للدهشة والإعجاب أكثر بكثير مما يمكن لشيكاجو، أو حتى أيّ مدينة حديثة أخرى، أن تفعل. وعلى الرّغم من ذلك لم تُنسب عظمة تلك المدن (كما في حالتي بغداد وكاي فنغ على الأقل) إلى تفوق عرقيّ، أو ثقافيّ، أو إلى اختيار إلهيّ.

إنّ أهميّة شيكاغو، ومثلها مدينة ملبورن في أستراليا، كما يخبرنا جيمس بيليش في «تجديد الأرض»، أنّها تُمثّل قصّة صعود العالم الأنغلو سكسوني وأفول كل ما سواه. وعلى الرّغم من أنّ هدف تلك المحاولة ليس التأريخ لصعود العالم الأنغلو سكسوني؛ بل استكشاف مدى طفيليته وطفيليّة صعوده، فإنّ لندن وصعودها الصاروخيّ في أعقاب العام 1830م شكّلت نموذجاً للطفيليات الاستعمارية في حالتها القصوى. فعدد سكان عاصمة العالم الناطق بالإنكليزية وصل إلى المليون نسمة للمرة الأولى في العام 1800م، ثمّ تضاعف العدد إلى مليونين بعد ثلاثين عاماً فقط (1830م)، وتضاعف مرة أخرى إلى أربعة ملايين بحلول العام 1870م. وبحلول العام 1920م، تضاعف العدد عشر مرّات حتى وصل إلى عشرة ملايين. ومثل لندن، كان لنيويورك، المدينة الأنغلو سكسونية الأخرى حصّتها من الانفجار السكانيّ الذي شهده العالم الناطق بالإنكليزية مقارنة بالإمبراطوريات الأخرى كانت أقل من 12% من عدد سكان روما في العام 1750م، وبحلول العام 1900م، كانت ثمانية أضعافها بعدد سكان وصل إلى 6 ملايين نسمة. ومن أجل فهم ذلك الانفجار السكانيّ وصعود العالم الناطق بالإنكليزية (إنجلترا ومستعمراتها) يكفي فقط أن نعرف أنّه بين الأعوام 1790م-1930م زاد عدد سكان ذاك العالم بـ 16 مرّة، متجاوزاً بذلك العالم الناطق بالأسبانية (أسبانيا ومستعمراتها) ليصبح ضعفها في العام 1900م بعد أن كان أقل بكثير من نصفها في العام 1750م، والعالم الروسيّ، والعالم الصينيّ. لم تكن صدفة، إذن، ولا جوهرانية عابرة للتاريخ خاصة بالأنغلو سكسون، هي التي قادت إلى صعودهم وهيمنتهم على العالم في القرن

التاسع عشر، وإلا فإن أفول هذا العالم الذي يجري أمامنا سيشكل معضلة للتفسير. فصعود لندن في هذه المرحلة، وبهذه الطريقة لم يكن عفويًا؛ بل ترافق مع أكبر عملية نهب للعالم في التاريخ؛ بحيث أصبحت لندن الأنموذج الطفيلي الخارق الذي لا، ولم، يتفوق عليه إلا أنموذج المدن الأميركية لاحقًا. فما بين الأعوام 1830م-1850م، كانت إنكلترا تأخذ من أيرلندا فقط (حتى لا نذكر الهند وأميركا الشمالية وباقي العالم الذي استعمرته) سنويًا 100 ألف رأس بقر، و200 ألف رأس من الأغنام والحملان، و400 ألف خنزير، و90-60 مليون بيضة، هذا عدا عن الزبدة والجبنه ومنتجات الحليب الأخرى، إضافة إلى 40% من ناتج القمح الأيرلندي (أو 90% من حاجة بريطانيا من القمح)<sup>1</sup>. وإنكلترا كانت تأخذ (حرفيًا) تلك المنتجات؛ لأن أيرلندا كانت حينها بالذات تعيش ما عرف بـ «المجاعة العظمى»؛ بسبب مرض أصاب محصول البطاطا (طعام الفقراء) بين الأعوام 1845م-1849م، وتسببت بخسارة 25% من السكان؛ بسبب الموت جوعًا، أو الهجرة.

لم تكن أيرلندا فقيرة، أو تحتاج إلى المساعدة، ولم يكن على أهلها الموت جوعًا، أو الهجرة. ففي الوقت الذي كان خيار كثير من الأيرلنديين إمّا الموت جوعًا أو الهجرة، كانت حاجة القوارض البشرية التي تقطن لندن تتزايد باضطراد، ومن ثمّ، كان نهب أيرلندا وغيرها من المستعمرات يتصاعد. الالفت أنّ التطفّل الإنكليزيّ تفاقم أكثر بعد «الثورة الصناعيّة»، بعكس السردية التي تفترض أنّ إنكلترا قدّمت هدية إلى العالم. ومن ثمّ، فإنّ من يظنّ أنّ الثروة والبذخ اللذان عاشته لندن خصوصًا، وإنكلترا عمومًا، كان نتيجة «العبقريّة» الإنكليزية وثورتها الصناعيّة فهو مخطئ جدًا. ما فعلته الثورة الصناعيّة، في الحقيقة، هو تسهيل النهب وتفاقمه بشكل غير مسبوق، وحتى غير قابل للتخيل قبلها بسنين. فما بعد العام 1815م، تصاعد تصدير الحيوانات والمنتجات من أيرلندا، مثلًا؛ بسبب تطوّر وسائل النقل البحريّ، ودخول المحركات البخاريّة التي قصرت زمن الرحلة من 7 أيام إلى أقل من 14 ساعة فقط. هكذا، تزايد نهب إنكلترا لأيرلندا خمسة أضعاف بين الأعوام 1785م-1815م فقط. ما يهمّ في هذه القصة أنّ ترافق التبعات البيئية (فشل محصول البطاطا) والاجتماعيّة (النهب الكولونيالي) أثرًا، وبشكل كبير، في

1- Replenishing the Earth, P.446.

مسارات كل من إيرلندا وإنكلترا ومصيرهما.

لكن، مع الثورة الصناعيّة، لم يتزايد النّهب فقط؛ بل تزايد أيضًا عمليّة إعادة توجيه الاقتصاد الكليّ، أو إعادة تشكيل البنى الاقتصاديّة للمستعمرات لمصلحة، إنكلترا واحتياجاتها، وليس حسب احتياجات سكّان تلك المستعمرات، كما يخبرنا بول باران في «الاقتصاد السياسيّ للنّموّ» الذي يكشف علاقة الاستعمار التقليديّ والجديد في الهند<sup>1</sup>. حينها، دخل النّهب والتطفّل الكبير مرحلة جديدة غير مسبوقه في التاريخ. هكذا خلّق العالم الثالث.

### كورونا والقرن الأميركيّ القصير: مؤشّرات أفول القوّة الكليّة

حتى العام 2003م، «كان من العبث الحديث عن تراجع (مكانة) الولايات المتّحدة»، يقول ايمانويل والرشتين مؤسس نظريّة «النظام العالميّ». على الرّغم من ذلك، يضيف: «أصبح مثل هذا الاعتقاد الآن كقضيّة إجماع بين المنظرين وصانعي السياسة، ووسائل الإعلام. ما لم يتمّ تقديره حتى الآن بما فيه الكفاية هو الطبيعة المحدّدة لذلك التراجع ومتى بدأ تحديداً»<sup>2</sup>. أفول الهيمنة الأميركيّة أصبح فعلاً «فكرة شائعة»، كما جاء في عدد صيف 2011م من مجلة الأكاديميّة الأميركيّة للعلوم السياسيّة التي جادلت أنّ الدولة التي كان العالم يعدها قوّة لا مثيل لها قبل بضع سنوات فقط، تعيش الآن حالة تراجع وتواجه احتمال التسوّس النهائيّ. أصبحت فكرة شائعة لدرجة أنّ النّشريات التي تعكس طريقة تفكير النّخبة الأميركيّة الحاكمة كمجلة «فورين أفيرز» بدأت بنقاش، وحتى التشكيك بفكرة إمكانيّة «قرن أميركيّ آخر» منذ العام 1998م<sup>3</sup>.

1- Paul A. Baran. 1957. «The Political Economy of Growth». NY: Monthly Review Press.

2- Immanuel Wallerstein. «Precipitate Decline: The Advent of Multipolarity.» Harvard International Review, Spring 2007. Pp. 54-59.

3- Mortimer B. Zuckerman. «Debate: A Second American: على سبيل المثال: 3rd Century»؛ Paul Krugman. «Debate: America the Boastful». Foreign Affairs, May/June 1998; Fareed Zakaria, «Can America Be Fixed?» Foreign Affairs, Jan/Feb 20123, pp. 22-33

لكن سرديّة النّجبة، وأغلب الأفكار التي تتداولها نشرات «التيار العام»، على الرّغم من كل ذلك، تقف على رأسها. فسرديتها التي تستند إلى الزمن الفردي، لا الاجتماعي، بالكاد تبدأ مع نهاية الحرب العالميّة الثانية، وحتى تسيء فهم ما حصل منذ التسعينيات، وخصوصاً معنى سقوط الاتحاد السوفييتي وتبعاته. أمّا سرديّة الأفول، كما يرويها والرشتين فتعتمد على منهجيّة بعيدة المدى تدخل متغيرات ومؤشرات تدلّل على التحوّلات العميقة في قراءة التاريخ. هكذا تقف سرديّة الأفول على قدميها؛ فالصعود الأميركي، حسب والرشتين بدأ في العقد الثامن من القرن التاسع عشر (1870م)، ووصل إلى القمّة في العام 1945م، في أعقاب الحرب العالميّة الثانية. بعدها، بدأ الأفول، وليس كما يعتقد مؤرّخو التيار الأميركي السائد أنّ العام 1945م كان بداية الصّعود، لا الأفول كما يجادل والرشتين. وفي سياق ذلك الصعود، منذ العام 1870م، كان على أميركا أن تنافس الهيمنة البريطانيّة التي كانت تمرّ بمرحلة الأفول وتستبدلها، وأيضاً منافسة القوّة الجديدة الصاعدة حينها، ألمانيا، والتي تمّ تدميرها مرّتين في سعي الولايات المتحدة للهيمنة. نقاش الأفول، يتوجّب أن يبدأ من العام 1945م، حين بدأت الولايات المتّحدة تدريجيّاً تفقد الهامش الهائل الذي فصلها عن باقي الدول الأخرى في مجالات متعدّدة يحسبها الباحثون في التاريخ والاقتصاد السياسيّ وعلم الاجتماع مؤشرات القوّة الكليّة (اقتصاديّة، وسياسيّة، وأيديولوجيّة، وثقافيّة، ومعرفيّة، وتقنيّة، وبنية تحتيّة، وعلميّة، إلخ...) . أحد المؤشّرات المهمّة، والتي يمكن قياسها إمرياقياً، هو المؤشر الاقتصاديّ، وتحديدًا المساهمة الأميركيّة في الإنتاج العالميّ، والذي مثل أحد عوامل التفوّق الأميركيّ الأهمّ.

فما بين الأعوام 1960م-2019م، تراجعت المساهمة الأميركيّة في الإنتاج العالميّ تدريجيّاً من 38,2% إلى 15,79%. فبينما نما النّاتج المحليّ الإجماليّ الأميركيّ (GNP PPP) من 520 مليار و531 مليون دولار في العام 1960م إلى 21 تريليون و427 مليار دولار في العام 2019م، نما النّاتج العالميّ من تريليون و360 مليار إلى 135 تريليون و670 مليار دولار سنويّاً - أي أنّ النّاتج المحليّ الإجماليّ الأميركيّ زاد بنسبة 4116% خلال ستّين عامّاً، فيما كانت الزيادة في النّاتج الإجماليّ العالميّ 9978%، أو أكثر من ضعف الزيادة في النّاتج الأميركيّ، خلال المرحلة نفسها.

وفيما تُستخدم مساهمة أي دولة في الإنتاج العالمي كمقياس ومؤشر على مكانتها، أو هيمنتها في المنظومة الدوليّة، ومِن ثَمَّ، هيمنة الإمبراطوريّة الأميركيّة في العالم، فإنَّ أهميّة ذلك المؤشر أنه لا يعكس فقط فقدان الولايات المتحدة للهامش الهائل الذي فصلها اقتصاديًا عن باقي دول العالم وأسس لهيمنتها؛ بل يشير كذلك حتى إلى خسارتها لمجرّد التفوّق في هذا المجال. فبيانات البنك الدوليّ تشير إلى أنّ مساهمة الصين في الإنتاج العالميّ تجاوزت المساهمة الأميركيّة منذ العام 2018م، بنسبة 16,8% - 15,92% وفي العام 2019م بنسبة 17,29% - 15,79% لمصلحة الصين.

لكن العامل الاقتصاديّ هو مجرّد متغيّر واحد من عشرات معتمدة أكاديميًا لقياس القوّة الكليّة لدول المنظومة الدوليّة. أحد تلك العوامل التي تمّ لفت الانتباه إليها كثيرًا مؤخرًا هي حالة البنية التحتيّة في الولايات المتحدة (مطارات، وجسور، وموانئ، وطرق، ومستشفيات، إلخ،...). السبب الأساس لذلك كان حصول البنية التحتيّة على تقدير (D+) من قِبَل «جمعيّة المهندسين المدنيّين الأميركيّين» منذ العام 2013م وحتى العام 2017م - لم يتغيّر ذلك التقدير حتى الآن<sup>1</sup>. الولايات المتحدة والصين: الناتج الإجماليّ المحليّ كنسبة من الناتج الإجماليّ العالميّ<sup>2</sup>.

السنة	العالم	الولايات المتحدة	الصين
1960	1,359,619,245,233	520,531,181,568	38.2%
1970	2,896,585,460,816	1,024,800,000,000	35.3%
1980	12,264,412,963,496	2,767,500,000,000	22.56%
1990	29,298,647,422,306.5	5,963,144,000,000	20.35%
2000	48,937,260,662,320.7	10,252,345,464,000	20.9%
2010	89,276,239,735,230.9	14,992,052,727,000	16.79%
2018	129,250,669,645,666	20,580,222,999,999.9	15.92%
2019	135,669,545,108,181	21,427,700,000,000.1	15.79%

1- <https://www.infrastructurereportcard.org/americas-grades>.

2- تمّ تجميع البيانات من قاعدة المعلومات في البنك الدوليّ. <https://databank.worldbank.org/reports.aspx?source=2&series=NY.GDP.MKTP.PP.CD>.

## كورونا والتطّل الاجتماعي: الاقتصاد السياسي للكوارث

في مثل هذه الأيام قبل خمس عشرة سنة (2005/23/8م) ضرب إعصار «كاترينا» مدينة «نيو أورلينز» في ولاية لويزيانا الأميركية، مُحدثًا خرابًا هائلًا قُدِّرَ بـ 125 مليار دولار وأكثر من 1200 ضحية. لكن ضحايا الإعصار، وأغلبهم من أقلّيات نيو أورلينز وفقرائها، لم يقفوا فقط فريسة «العنصرية البيئية» السائدة، حيث يتحمّل أمثالهم عادةً غالبية تبعات الخراب البيئي الذي تنتجه الشركات والمصانع؛ بل كانوا أيضًا ضحية تطفّل واستنزاف مزدوج، بيئي واجتماعي، كما سيّضح لاحقًا. فمأساتهم لم تُشكّل مجرد فرصة أخرى للزّبح السريع لبعض تجّار الكوارث؛ بل كانت فرصة فريدة لأقطاب النيوليبرالية الاقتصادية ومهندسيها؛ لتحويل نيو أورلينز إلى مختبر لتجربة سياساتهم وتميرها.

إنّ أهميّة ما حصل في نيو أورلينز في أعقاب الإعصار أنّه شكّل الأنموذج الذي أسّس للحزمة التحفيزية الاقتصادية الأولى التي أقرّها الكونغرس، وتبنّتها الإدارة الأميركية في أعقاب جائحة كورونا (أكثر من 2 تريليون دولار)، كما أسّست لنقاش الحزمة التحفيزية الثانية التي أفضّل تميرها حتى الآن خلاف سياسي على أعتاب الانتخابات. لهذا، فمن أجل فهم معنى الحزمة التحفيزية وتبعاتها التي تبنّتها الحكومة الأميركية كأنموذج لفهم سياسة مواجهة جائحة كورونا، ومن ثمّ، تبعاتها على التراجع الاقتصادي، يتوجّب البدء من كارثة نيو أورلينز.

ففي أوج مأساة نيو أورلينز، كتب ميلتون فريدمان (نبي النيوليبرالية الأميركية، والنسخة الأكثر شراسة من مؤسس الأنموذج فردريك هايك) مقالة في الـ «وول ستريت جورنال» المحافظة، وصف فيها الدمار الذي حلّ بمعظم مدارس نيو أورلينز بأنّها «فرصة للإصلاح الجذري للنظام التعليمي»<sup>1</sup>. كانت الفكرة التي روج لها، وتبنّتها مراكز أبحاث محافظة أولًا، ثم إدارة بوش، هي خصخصة النظام التعليمي. فبدلًا من إنفاق جزء من أموال إعادة الإعمار التي رصدتها الحكومة الفيدرالية (أكثر من 100 مليار دولار) على إعادة بناء المدارس المدمّرة، وإصلاح النظام التعليمي في نيو أورلينز، دعا فريدمان إلى انتهاز تلك الفرصة؛ لتمكين

1- <https://www.wsj.com/articles/SB113374845791113764>

[https://miltonfriedman.hoover.org/friedman\\_images/Collections/2016c21/WSJ\\_12\\_05\\_2005.pdf](https://miltonfriedman.hoover.org/friedman_images/Collections/2016c21/WSJ_12_05_2005.pdf).

المستهلكين؛ أي الطلاب وخصخصة التعليم. على هذا الأساس، ستقوم الحكومة بتزويد الأهالي بقسائم ماليّة، تكون قابلة للاستخدام فقط لتغطية نفقات التعليم، وسيكون لدى الأهالي «الحريّة» حينها في اختيار المدارس التي يعدونها الأفضل لأبنائهم.

هكذا تمّ استبدال المدارس الحكوميّة بمدارس خاصّة (أطلق على بعضها تسمية «مستقلّة» أو «متخصّصة») ممّولة حكوميّاً عبر القسائم التي ستصرفها الحكومة للأهالي باسم حريّة المستهلك لاختيار المدرسة. أمّا الإدارة والقوانين فهي ذاتيّة ولا تخضع للحكومة، مثل المدارس الحكوميّة التقليديّة، فيما الأرباح تبقى من حظ المستثمرين فقط. وخلال أقل من عامين من الإعصار، بقي في نيو أورلينز 4 مدارس حكوميّة فقط من أصل 123، فيما ارتفع عدد المدارس «المستقلّة» والخاصّة من 7 فقط قبل الكارثة البيئية إلى 31. وفي الوقت ذاته، قامت المدارس الجديدة بإلغاء عقد عمل نقابة المعلمين السابق، وحتى فصل 4700 موظفًا من عملهم. أمّا من بقي من الموظفين والمعلمين، أو من تمّ تعيينه من موظفين ومعلمين جُدد، فلقد حصل ذلك وفق عقد عمل جديد وبأجور أدنى.

في كتابها، «نظرية الصدمة: صعود رأسمالية الكوارث»، روت الصحفية الكنديّة ناعومي كلاين قصة مأساة نيو أورلينز بالتفصيل، واستنتجت أنّه تمّ استغلال الكارثة لتميرير السياسات النيوليبراليّة، تمامًا كما حصل في تشيلي (منذ مطلع السبعينيّات بعد الانقلاب على الرئيس المنتخب سلفادور أليندي)، والعراق (بعد الغزو والاحتلال)<sup>1</sup>. ذلك النموذج، أو «رأسمالية الكوارث»، كما سمّتها كلاين، تكشف عن ميول النيوليبراليّة المتزايدة لاستغلال الكوارث لتميرير رؤيتها، أو ما وصفه فريدمان بـ «علاج الصدمة». لكن في نيو أورلينز، كما في كلّ مكان يتمّ فيه تطبيق السياسات النيوليبراليّة واستغلال الكوارث البيئية والحروب؛ لتميرير مشاريع تصفية القطاع العام، تمّ أيضًا إعادة تعريف «الحريّة» ربطًا بإعادة تعريف مفهوم المواطن كمستهلك أساسًا، واستبدال الدستور بالعقود التجاريّة.

وفي نيو أورلينز أكّدت التجربة المؤكّد؛ فلأن المستهلكين ليسوا متساوين، أسهم ذلك النموذج ليس فقط في إعادة إنتاج اللامساواة القائمة أصلًا؛ بل قاد إلى

1- Naomi Klein. 2008 «The Shock Doctrine: The Rise of Disaster Capitalism.» NY: Macmillan.

تعزيرها وزيادة الفجوة بين الشرائح الاجتماعية، فيما كان الفقراء والأقليات أكثر المتضررين.

لهذا، ربما كان أخطر أثر للسياسات النيوليبرالية هي التبعات السياسية، وليس فقط الأزمات الاقتصادية التي تترافق مع تطبيق رؤيتها. فمع تقليص مجال الدولة والفضاء العام، فإن قدرة المواطنين على التأثير في مسارات حياتهم ومسارات مجتمعاتهم عبر ممارسات ديمقراطية، أو من خلال الانتخابات تتقلص باضطراد، لدرجة أن تنفيذ العقود التجارية يصبح لها الأولوية حتى حين تتعارض مع مواد الدستور. لهذا، يتم اختزال الحرية، كمفهوم وممارسة، بحرية المستهلك في اختيار السلعة، ويحصر خيارات «المواطن» الديمقراطية في فضاء حرية اختيار السلع.

لهذا السبب، يشير جورج مانبيوت، محققاً، في «النيوليبرالية: الأيديولوجيا المسيئة لكل مشاكلنا»، أنه حتى حين يقوم أي برلمان منتخب ديمقراطياً بالتصويت «لتحديد أسعار السلع، أو حماية مصادر المياه من التلوث من قبل شركات التعدين، أو تجميد أسعار فواتير الطاقة، أو منع شركات الأدوية من نهب الدولة، تقوم تلك الشركات بمقاومة الدولة (عادة) بنجاح»<sup>1</sup>. وهذا صحيح ليس في الداخل الأمريكي فقط. فكل الدول التي تتبنى ذلك النموذج الاقتصادي تخضع لقوانين ومؤسسات ومُحكِّمين ومحاكم دولية، ولا تجد مفرّاً من تنفيذ توجهاتها وقراراتها حتى لو خالف، أو تعارض ذلك مع الخيارات الديمقراطية لشعوبها وبرلماناتها وداياتها.

حتى لحظة كتابة هذه الورقة، فشل أقطاب الكونغرس بالتوصّل إلى صيغة الحزمة الاقتصادية الثانية؛ بسبب أنّ جزءاً أساسياً من الحزمة الأولى انتهى في تموز من العام 2020م. لكن الحزمة الأولى لم تسفر عن أيّ تعافٍ للاقتصاد، بالرغم من الانتعاش المؤقت المتوقع الذي شهده الاقتصاد نتيجة ضخ الحكومة أكثر من ملياري دولار في الاقتصاد<sup>2</sup>. الجدل الأساس الذي دار في الكونغرس تمثّل في الاختلاف على تمديد مخصّصات البطالة لما بعد شهر تموز/يوليو (600 دولار

1- <https://www.theguardian.com/books/2016/apr/15/neoliberalism-ideology-problem-george-monbiot>.

2- الانتعاش «يعني النمو الاقتصاديّ المستدام من ربيع السنة الماليّة إلى الرّبع اللاحق، لكنّه لا يقود إلى استعادة الأرضيّة الاقتصاديّة المفقودة. فالانتعاش عادة ما يكون مؤقتاً، ويتبعه انتكاسات اقتصاديّة لاحقة في شكل ركود النموّ، أو حتى ركود ثانٍ، أو ثالث.

أسبوعياً في الحزمة الأولى) من جهة، والمبلغ الذي سيتقاضاه المعطلين عن العمل أسبوعياً في حالة الاتفاق من جهة أخرى كان هناك شبه اتفاق بين الحزبين أن الدفعات الأسبوعية يجب أن تكون أقل بكثير من الحزمة الأولى، لكن الخلاف كان على النسبة (200-400 دولار بدل الـ 600).

اللافت، والمهم لفهم طبيعة الحزمتين، أن الجدل الذي عطل تمرير الحزمة الثانية تركّز على القسم الأصغر من الحزمة الأولى، والتي شملت 500 مليار دولار فقط، من أصل 2,3 تريليون، كدخل إضافي لجميع المواطنين (1200 دولار للفرد لمرة واحدة، و600 دولار إعانات بطالة أسبوعية حتى نهاية شهر تموز). أما حصّة الشركات الكبيرة والمتوسطة والصغيرة والتي شكّلت حصّة الأسد من الحزمة (1,76 تريليون)، وجاءت على شكل منح وقروض وبرنامج لدفع أجور الموظفين بتمويل حكومي، بالإضافة إلى 650 مليار دولار أخرى على شكل تخفيضات ضريبية (استفاد منها أقل من 3% من ذوي الدخل الذي يقل عن 100 ألف دولار سنوياً) فلم تكن مشار جدل كبير؛ هذا ما دفع الـ «نيويورك تايمز» للتعليق «أن العمال السود (الذين أصابتهم الجائحة أكثر من غيرهم) سيتضررون أكثر من غيرهم إذا لم يمدد الكونغرس إعانات البطالة»<sup>1</sup>، فيما ستكون البنوك المستفيد الأكبر من الحزمة الثانية، كما أرادها الجمهوريون<sup>2</sup>.

الأهم، ربّما، أن هذا النموذج لمواجهة تبعات انتشار الوباء، وبتلك التركيبة التي رأيناها في الحزمة الأولى، لا يمكن أن يؤسس لتعافٍ، أو حتى لانتعاش مستدام للاقتصاد، حتى لا نذكر الفشل الذريع في تحصين الفئات الأكثر تأثراً بالوباء كالفقراء والأقليات. فعلى الرغم من أن الحزمة شكّلت تقريباً 11% من إجمالي الناتج المحلي، إلا أن ما دخل الدورة الاقتصادية منها هو أقل من النصف فعلياً، أو 5,5%، والمتمثل بإنفاق إعانات البطالة وبرنامج حماية الأجور. أما نصيب الشركات والبنوك، بالإضافة إلى التخفيض الضريبي (لمن دخلهم أكثر من 100 دولار سنوياً) الذي مثل القسم الأكبر من الحزمة فلم (ولن)

1- <https://www.nytimes.com/2020/08/07/upshot/unemployment-benefits-racial-disparity.html?action=click&module=Top%20Stories&pgtype=Homepage>.

2- <https://www.nytimes.com/2020/07/27/business/bank-regulations-roll-back-stimulus-bill.html?searchResultPosition=3>.

يدخل الدورة الاقتصادية ولم يتم إنفاقه، كما يشير جاك راسموس في «الغلوبال ريسيرتش»<sup>1</sup>.

ربما تفسر تركيبة الحزمة الاقتصادية الأولى لمواجهة وباء كورونا بعض تفاصيل تقارير وزارة العمل عن البطالة ووزارة التجارة عن الانكماش الاقتصادي، منذ بدء الجائحة. ففي الربع الأول من العام 2020م، انخفض الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 5%، أو ما يعادل 20% سنوياً (أغلبها في شهر آذار). أما في الربع الثاني، فكان الانخفاض 9,5%، أو ما يعادل 32,9% سنوياً، حسب وزارة التجارة<sup>2</sup>. هذا يعني أن التصورات الزائفة التي كانت في خلفية تركيبة الحزمة الاقتصادية الأولى، وتُشكل محور دعاية الأنموذج النيوليبرالي (ما يُسمى انسياب/تدفق التأثير من الأعلى إلى الأسفل) قد أثبتت فشلها مرة جديدة. فعلى الرغم من إنفاق أكثر من 2,3 تريليون دولار، وعلى الرغم من إعادة فتح الاقتصاد في منتصف الربع الثاني في شهر أيار، كان الانكماش الذي حصل غير مسبوق في التاريخ الأمريكي منذ بدء جمع البيانات في العام 1947م، كما يشير تقرير وزارة التجارة.

لكن الانكماش الذي شهدناه في الربع الثاني من هذا العام كان في الحقيقة أسوأ حتى من أي مرحلة خلال الكساد العظيم في الثلاثينيات من القرن الماضي. لهذا، فإن القلق من احتمال تحوّل «الرُكود» الذي تمرّ به الولايات المتحدة إلى كساد مبرّر جداً، خصوصاً أنّ الفارق هو في المدى الزمني فقط، وليس في مستوى الانكماش والتراجع الاقتصادي (الكساد يمتدّ لمرحلة زمنية أطول نسبياً من الرُكود).

أحد دروس الحزمة التحفيزية الأولى تؤكد أنّ الأنموذج النيوليبرالي ربما يشكل نقطة الضعف القاتلة (كعب أخيل الأمريكي) في مواجهة جائحة كورونا. فليس فقط أنّ تلك الحزمة عجزت عن تحصين الفئات الأكثر تضرراً بالوباء والأكثر معاناة من تبعاته الاقتصادية؛ بل إنّ ذلك الأنموذج ضاعف من تبعات مفاعيل الوباء على الاقتصاد في لحظة تاريخية حرجة من المنافسة مع الصين، القوة

1- <https://www.globalresearch.ca/deep-recession-and-contraction-of-global-economy-second-wave-covid-economic-impact/5718221>.

2- <https://www.bea.gov/news/2020/gross-domestic-product-2nd-quarter-2020-advance-estimate-and-annual-update>.

الصاعدة، والاقتصاد الوحيد بين الاقتصادات الكبرى الذي حقق نموًا إيجابيًا في الربع الثاني من العام 2020م.

### خاتمة: تحذير التاريخ

في يوم عيد الفصح من العام 1722م، وصل البحار الهولنديّ ياكوب روجينفين إلى جزيرة معزولة جنوب المحيط الهادئ، وسماها «الفصح» تيمناً بذلك اليوم. كانت الجزيرة، كما رآها، قاحلة، حتى من دون شجرة واحدة. وحين قام علماء النبات لاحقاً بدراسة الجزيرة حدّدوا 47 نوعاً فقط من النباتات العالية الأصلية في عيد الفصح، معظمها من الأعشاب، والنباتات، والسرخس. ومع مثل تلك النباتات، لم يكن لدى سكان الجزيرة أيّ مصدر من الحطب الحقيقيّ للتدفئة خلال فصل الشتاء البارد والرطب وشديد الرياح، ولا حتى لصناعة قوارب لصيد السمك. أمّا حيوانات تلك الجزيرة، فلم تتضمّن أيّ شيء أكبر من الحشرات. فلم يكن هناك حتى نوع واحد من الخفافيش الأصلية، أو الطيور البرية، أو الحلزون البرّي، أو السحالي.

لكن الدراسات الأركيولوجية اللاحقة التي غطت مدة تتجاوز الـ 30 ألف سنة قبل وصول الإنسان إلى الجزيرة، وخلال السنوات الأولى من الاستيطان البولينيّ لجزر المحيط الهادئ، تؤكد أنّ جزيرة الفصح لم تكن أرضاً قاحلة على الإطلاق؛ بل كانت غابة شبه استوائية من الأشجار والشجيرات الخشبية تمتدّ فوق طبقة أرضية من الشجيرات والأعشاب والسرخس. كانت الشجرة الأكثر شيوعاً في الغابة نوعاً من النخيل يصل طوله إلى 82 قدماً وقطره 6 أقدام، انقرض الآن، ولكنّه كان وفيراً في السابق لدرجة أنّ الطبقات السفلية من عمود الرواسب كانت مليئة بغبار الطلع.

ما حصل في جزيرة الفصح أوجزه لنا جاريد دياموند في كتابه «الانهيار: كيف تختار المجتمعات الفشل أو النجاة»<sup>1</sup>: خلال بضعة قرون فقط، قام سكان جزيرة الفصح بالقضاء على غاباتهم، ودفَعوا نباتاتهم وحيواناتهم إلى الانقراض، وشاهدوا مجتمعهم المعقّد يتحوّل إلى فوضى، وانتهوا (من أجل النجاة) بأكل لحوم البشر.

1- Jared Diamond. 2013. «Collapse: How Societies Choose to Fail or Survive». NY: Penguin.

لهذا يتساءل دياموند: هل نحن على وشك أن نحذو حذوهم؟!  
 ربّما قد يكون أكثر أهميّة من سؤال دياموند هذا سؤال آخر تفيدنا به التجربة  
 الصينيّة؛ فبعد أكثر من عشر سنوات بقليل، في حدود العام 2030م، سيكون  
 بمقدور الأفراد في الصين مالياً العيش بالبذخ ذاته الذي يعيشه الأميركيون الآن.  
 فإجماليّ الناتج المحليّ للفرد بقياس تعادل القوّة الشرائيّة سيصبح حينها مثل نظيره  
 الأميركيّ هذه الأيام، وربما سيكون أعلى، حتى لو تراجع النموّ السنويّ الصينيّ  
 قليلاً. فالناتج المحليّ الإجماليّ الصينيّ بقياس تعادل القوّة الشرائيّة، حسب  
 صندوق النقد الدوليّ، تجاوز نظيره الأميركيّ منذ العام 2014م، وسيبعه في العقد  
 الرابع (2030م) إجماليّ الناتج المحليّ للفرد.

ولأن 16% فقط من سكّان الأرض (أميركا الشماليّة وأوروبا الغربيّة) يستهلكون  
 تقريباً 76% من المصادر، فالمعضلة التي يناقشها المحلّل البيئيّ الأميركيّ،  
 ورئيس «معهد الأرض» ليستير براون، ببساطة أنّه لو أزداد الصينيون فعلاً العيش  
 وفق الأنموذج الأميركيّ، فإنّ مصادر الأرض كلّها لن تكفي حينها الصين وحدها.  
 فمعدل الاستهلاك الفرديّ للطاقة مثلاً في أميركا يعادل استهلاك شخصين في  
 اليابان، أو ستّة في المكسيك، 13 في الصين، 31 في الهند، 128 في بنغلادش،  
 أو 370 في إثيوبيا. لهذا، فلو قام الصينيون حينها بترجمة دخلهم لاستهلاكه وفق  
 الأنموذج الأميركيّ، فسنحتاج إلى كواكب عدّة أخرى، ونحن لدينا واحد فقط.  
 والسؤال المفترض طرحه حقاً الآن، والذي يكشف أحد أسس الأزمات التي  
 يعيشها العالم، خصوصاً في ظلّ الأزمة البيئيّة الكارثيّة: هل يستطيع العالم والبيئة  
 أن يحتملا ويتحمّلا استدامة الأنموذج الأميركيّ لسنوات قادمة؟!!